ظلال المعانى فى القرآن الكريم

من المعروف أن المعني لايستدل عليه بالألفاظ فحسب ، وإنما تتعدد وسائل الدلالة عليه بحيث تشمل الأحداث والمواقف والانطباعات وما يكون من تجريدات ذهنية تحدث عند إدراك المعني بأي وسيلة مما سبق . دعنا أولا قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع نعرض رسما إيضاحيا يقرب من فهم هذا الكلام ، ويبين أنواع الإدراك وصلة كل منها بالمدركات :

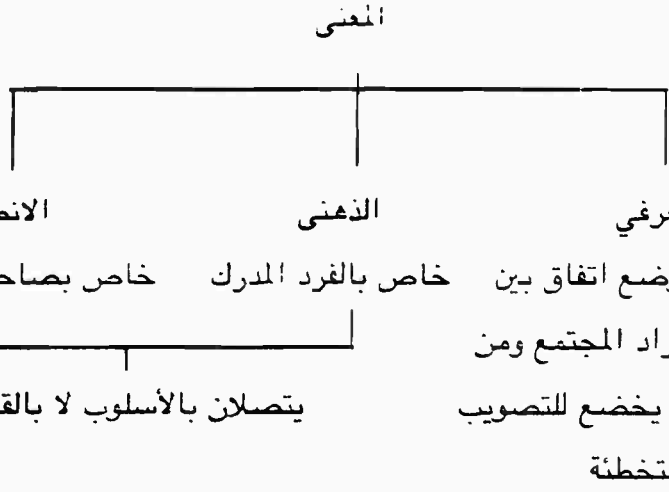

لعل هذا الرسم البياني أن يعين علي إدراك الفرق بين أنواع المعني الثلاثة المذكورة إدراكاً عاماً يمهد للكلام عن كل نوع علي حدة . فالمعني العرفي ما تدل عليه العناصر اللغوية من الأدوات والصيغ الصرفية والأسماء والأفعال ومفردات المعجم وصور الجمل المختلفة وكل ما يشمل عليه العرف اللغوي من العناصر . وتتضح ظلال المعني للمعرب عند مزاولة إعراب الجملة ، لأن مصطلحات الإعراب قد لا ترد علي ذهن المعرب إلا بعد معرفته بهذه الظلال . ومن شأن تناول هذا النوع من المعني أن يكون صالحاً للتعقيد لتوالي العناصر الدالة عليه ، إلا مفردات المعجم فهي علي رغم طابعها العرفي تخضع في معانيها للتصنيف دون التعقيد . وهذا التصنيف

مع ذلك يعين علي وضوح القواعد النحوية من خلال بناء الجمل من عناصر معجمية . ومما يشتمل عليه العرف من دلائل المعني جملة العادات والتقاليد والمسالك العرفية في مجال الأعمال والأحداث والمواقف .

وإذا كان المعني العرفي يعتمد في الإدراك علي القياس فإن المعني الذهني يعتمد علي الاستنباط (الذي يلخصه لفظ إذن) والمعني الانطباعي يعتمد علي الارتداد (رد الفعل) فلو أنك ألقيت التحية إلي شخص ما فلم تظفر منه بردها وأنت تعلم أنه سمعها فإن ذلك يدل في رأيك علي أنه غير مقبل علي الاستجابة لك . وإذا وقعت حادثة قتل في مكان ما وذهب رجال المباحث الجنائية إلي موقع الحادثة فإن أول ما يطالبون به أن تبقي الأوضاع المادية علي حالها التي وجدت عليها ، ليتمكنوا من الفهم الدقيق للظروف التي صاحبت الحادثة . وسوف يكون نجاحهم في كشف غموض ما حدث مرهونا بإدراكهم الذهني للعلاقات بين ما يصادفهم من الأدلة وبين مدلولاتها الذهنية ، وهلم جرا .

وأما المعني الانطباعي فقوامه ما يثور في نفس من انفعال بما يصادف المرء مما يسبب له الإحساس بالرضا أو يبعث في نفسه الضيق . ويبدأ ذلك من ردة فعله لحالة الطقس ويمتد إلي سماع الموسيقي أو الاستعانة أو المشاهد المسرحية أو الإحساس بالسخونة الشديدة عند اللمس المفاجيء أو نحو ذلك . ومن جنس ما يثير هذا المعني ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالي : «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (البقرة ٢٧٣) . والملاحظ أن المعني الانطباعي ليس من شأنه أن يتوقف علي عرف أو علي إدراك ذهني وإنما يتوقف علي ردة الفعل المباشرة عند الإدراك الحسي في مجمل صوره .

ويستدل علي المعني العرفي في عمومه بواسطة سياقين : سياق النص وسياق الموقف . فأما المقصود بسياق النص فهو الجانب القولي بما فيه من عناصر التركيب وما تنتظم به من تصنيف وتأليف وعلاقات وقرائن . وأما

المقصود بسياق الموقف فهو ما يصاحب المنطوق من أوضاع تداولية توصف أحيانا بأنها عناصر الموقف ، وهي عظيمة الأهمية لفهم ما يقال . ويسميها المفسرون : «أسباب النزول» ، كما يسميها شراح النصوص : «المقام» . وقد تجد القصيدة الواضحة الصياغة لايتحقق فهمها إلا بعد التقديم له بذكر الظروف التي دعت لنظمها . وهذا هو سياق الموقف . ومن عناصر الموقف منشيء النص ومن يستقبله (فردا كان أو جماعة) وظروف قوله وما تركه من أثر في النفوس وما إذا كان الأداء لغوياً فقط أو كان مصحوباً بجانب حركي ... إلخ .

هذه جملة القول في المعني باختصار . ونريد الآن أن نلقي الضوء علي العلاقة بين المعني وظل المعني . لأن ظل المعني لايمكن فهمه إلا بعد إدراك المعني الذي هو ظله . ولنا من هذه اللحظة أن نتناول مواقف عدد من الدراسات المختلفة من حيث النظرة إلي هذه الظلال فنبدأ بمستوي النص ثم بالنحو ثم البلاغة ثم أصول الفقه ثم الدراسات اللغوية الحديثة . فلكل من هذه الدراسات منهج تناول مشكلة المعني .

أولاً : من ظلال المعني علي المستوي النصّي :

يمكن تحت هذا العنوان أن نورد الأمثلة التالية :

١ - السؤال الوارد علي دعوي سابقة : قال تعالي :

* «فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ» (الرحمن ٣٩) .

«ولا يُسألُ عن ذُنوبهم المجرمُونَ» (القصص ٧٨) .

السؤال هو : كيف ذلك واليوم يوم الحساب ؟

والجواب الذي يسعي إليه السؤال : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام» (الرحمن ٤١) .

* وقال تعالي : « **ما كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمنُوا أن يستَغفرُوا للمُشْركينَ ولَوْ كانُوا أُولي قُربىٰ من بعد ما تبيَّنَ لهُمْ أنَّهُمْ أصْحابُ الْجحيمِ** » (التوبة ١١٣).

والسؤال الوارد هو : كيف ذلك وقد استغفر إبراهيم لأبيه ؟ إذ قال

لربه : «وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (الشعراء ٨٦) .

والجواب : «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (التوبة ١١٤) . والمقصود بالموعدة قول إبراهيم : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» (مريم ٤٧) .

٢ - دلالة الاستفهام الإنكاري :

يدل الاستفهام الإنكاري علي ما يلي :

* إذا كان الاستفهام الإنكاري مبدوءا بحرف النفي فإنّ ظل المعني هو الإثبات أو الأمر .

الشاهد علي معني الإثبات قوله تعالي : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ» (الضحي ٦) . أي لقد وجدك يتيما .

والشاهد علي معني الأمر قوله تعالي : «أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» (التوبة ١٣) . أي قاتلوهم .

* أما إذا كان الاستفهام الإنكاري بغير حرف النفي فإنّ ظل المعني هو النفي أو النهي .

الشاهد علي معني النفي قوله تعالي : «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا» (الأنعام ١١٤) . أي لست أبتغي غيره .

* وقوله جل شأنه : «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ا» (الحجرات ١٢) أي لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . ولما كان ظل المعني علي نية النفي صالحا أن يكون معجميا كما يكون نحويا جاز أن يكون التلخيص المعجمي للتركيب النحوي السابق هو لفظ «عفتموه» ومن ثم عطف عليه لفظ «فكرهتموه» . ومن صور النفي المعجمي في القرآن الكريم قوله سبحانه : «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ» (التوبة ٣٢) أي لايتقبل الله إلا أن يتم نوره .

أما الشاهد علي إرادة النهي فقوله تعالي : «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (يونس ٩٩) . أي لاتكرههم علي الإيمان ، لأنه « لا إِكْرَاهَ فِي

الدين» (البقرة ٢٥٦) .

ويمكن صرف هذا الإنكار إلي معني النفي ليكون ظل المعني : ليس من شأنك أن تكره الناس .

٣ - دلالة الحذف :

من المعروف أنه لا حذف إلا بدليل ، وأن هذا الدليل إذا تحقق أصبح الحذف بذاته دالا علي ظل للمعني يدركه من إدراك الدليل علي الحذف . ومن شواهد ذلك قوله تعالي :

* «الْحَاقَّةُ ما الْحَاقَّةُ وَما أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ» (الحاقة ١ - ٣) .

لم ير المفسرون في هذا النص حذفاً ، ومن ثم فهموا منه الاستفهام بواسطة «ما» الاستفهامية . وفي ذلك مفارقة هي اعتقاد اتجاه السؤال من الله لرسوله وليس العكس . أما ظل المعني المقصود فهو التعجب الذي يدل علي حذف «أفعل» بعد «ما» في «ما الحاقة» بدليل ذكر «أفعل» في الجملة التعجبية التي بعد ذلك مباشرة (أي وما أدراك ما الحاقة) . فهذه الجملة الأخيرة معناها : وما أعظم درايتك بالحاقة ، لأنك علي علم بأشراطها وما يحدث في يوم الدين ، وقد وضح الوحي لك هذا الأمر كما تدل الأحاديث علي ذلك . أما قضية حذف «أفعل» فلها شواهد أخري في التراث العربي منها حديث أم زرع ، إذ يرد فيه قولها في مدح زوجها : «زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ! » أي وما أحبه إليّ ! .

* « قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (هود ٨٠) .

الجواب محذوف يدل عليه سياق الموقف ، والتقدير : لاستطعت أن أرد كيدكم إلي نحوركم . وذلك هو ظل المعني .

* «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ...» (القصص ٢٣ - ٢٤) .

* «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ» (النجم ٤٣ - ٤٨) .

إذا كان في الفعل دلالة بلفظه علي المفعول به حسن حذف المفعول به دفعا للإطناب ، فلو نظرنا إلي الآيتين السابقتين من سورة القصص وما فيهما من فعلي السقي والإصدار وجدنا أن المفعول به لكل منهما لابد أن يكون من نوع قطعان الماشيه ومن الغنم بخاصه . ومن ثم اكتفي النص بذكر الفعلين ولم يذكر الماشية وقد وضعنا في مكانها هذه العلامة(*).

* قال تعالي : «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا» (التوبة ٩٢) . هنا فاء محذوفة تصلح للتقدير في أحد موضعين . فإما أن تقدر مع «قلت» لتعطف الفعل علي «أتوك» فيكون الفعل «تولوا» وما بعده جوابا لإذا ، وإما أن تقدر مع «تولوا» فيكون هذا الفعل معطوفاً علي «قلت» . وعلي أي من التقديرين يكون التقدير الآخر ظلا من ظلال المعني .

قد يكون التركيب إستفهاميا وظل المعني تعجباً :

وقد سبقت الإشارة إلي هذا الظل في مطلع سورة الحاقة من خلال الكلام عن الحذف . ويمكن هنا أن نضيف ما يلي :

قال تعالي : «هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا» (الإنسان - ١).

من الواضح أن هذا التركيب لايدل بصورته علي الاستفهام . فاللّه سبحانه وتعالي لايسأل عباده عن أمر هو أعلم به . أما المقصود هنا فهو التعجب من طول ما مر من الدهر منذ بدء الخليقة قبل أن يخلق الإنسان . ولعل استعمال الاستفهام لإفادة التعجب ظاهرة لغوية ذات إنتشار في الأسلوب العربي وشائعة في لغات أخري . أما في الأسلوب العربي فاقرأ قوله تعالي:

«هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون» (المطففين ٣٦) .
«قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً » (الإسراء ٩٣) .
«ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» (الرعد ٣٢) .

وأما في غير العربية فقد يقول الإنجليزي الذي ضرب شخصاً آخر «and did I beat him» .

وهو يقصد «ما أشد ما ضربته!

ونحن نقول في الأسلوب العامي: قدّ إيه يضايقني الحر!! أي ما أشد ما يضايقني !

٤ - اختيار نوع اللفظ المفرد للدلالة على ظل من المعنى :

قال تعالي : « وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأبواب وقالت هَيْتَ لَكَ» (يوسف ٢٣) .
«وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ» (يوسف ٢٥) .

في هاتين الآيتين إشارة إلي ثلاثة أشخاص : يوسف عليه السلام ، وإمرأة العزيز ، والعزيز نفسه . وأشد الثلاثة ضعفاً وأولاهم بالحرج يوسف، لأنه كان في حكم الرقيق وكان العزيز في مقام سيده ، كما كانت أمرأة العزيز في حكم سيدته أيضاً . وجاءت العبارة القرآنية لتنال من قدر إمرأة العزيز وتحد من احترام القاريء لها . فهي في الآية الأولي مجرد صاحبة البيت الذي يأوي إليه يوسف وليست سيدة ليوسف نفسه ، وفي الآية الثانية تخضع لسلطان سيد لها من حقه أن يكون قواما عليها دون أن يشير النص إلي العلاقة الزوجية بينهما .

«حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » (يونس ٩٠) .

كان فرعون يري لنفسه صفة الألوهية ، وقد أصر علي هذا الرأي حتي أدركه الغرق . عندئذ أدرك أن هذا الزعم غير حقيقي ، وأن الإله الذي دعا إليه موسي استطاع أن يورده مورد التهلكة . وما دام هذا الإله قويا إلي هذا الحد فهو جدير أن يعترف له بالألوهية . ولكنه عندما أراد أن يعبر عن ذلك لم يجد من المفردات ما يدل علي ألوهية هذا الإله إلا أنه الذي آمنت

به بنو إسرائيل . أما ما أشار به موسي إلي الله جل جلاله فلم يرد فرعون أن يذكره بما سمعه من صفاته سبحانه . بل سماه في مناسبة أخري : «إله موسي» (القصص ٣٨) . وهذا يجعل للمعني ظلا خاصا .

ثانيا : ظل المعني في ضوء العلاقة النحوية والقرينة :

للمعني عند النحاة أنواع منها :

١ - معني عام حقه أن يؤدي بالحرف ، يجعلونه سببا من أسباب البناء ، ومنه معاني الضمائر . وهذه المعاني هي التكلم والخطاب والغيبة والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث الخ . وهذا المعني من قبيل «المعني الوظيفي».

٢ - المعني الصرفي للصيغة المجردة بصرف النظر عن أمثلتها ، كدلالة «استفعل» علي الطلب أو الصيرورة أو اعتقاد الشيء علي صفة ما أو المطاوعة نحو أقمته فاستقام . وهذا وظيفي كذلك .

٣ - المعني المفرد ، وهو المعني المعجمي الذي ينسب إلي مفردات المعجم ، والذي تنسب إليه فكرة المناسبة المعجمية وهي فرع من فروع قرينة التضام . وهي التي يقصدها البلاغيون بقولهم : «إسناد الفعل إلي من هو له». وسيأتي أن الترخص في هذا المعني خطوة ضرورية إلي إستعمال المجاز .

٤ - معني الجملة أو أسلوب تركيبها النحوي الذي ينسب إليها بحسب أصل الوضع من خبر أو إنشاء ونحو ذلك . وهذا المعني هو الذي تكون له ظلال من قبيل ما مر بنا منها تحت قسم «أولا» ، وقد تعرض له حالات من اللبس لنقص في القرائن .

ومن المعروف عند النحاة أن الخبر عين المبتدأ في المعني وأن المضاف لايضاف إلي ما في معناه ، وأن الحال تشرح معني الملابسة ، وأن الجملتين يمكن أن تعبر إحداهما عن توكيد الأخري أو تفسيرها أو تعليها أو الاستثناء منها أو تفصيل إجمالها كما رأينا منذ قليل أن مبني الجملة قد يكون علي صورة الخبر ولكن معناه هو الشرط كما في قوله تعالي : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» (البقرة ٢٣٣)

أي (من أراد أن يتم الرضاعة فعلي الوالدات أن يرضعن أولادهن) . أو يكون مبناها علي صورة النهي ومعناها الأمر كما في قوله تعالي : «ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون» (البقرة ١٣٢) أي تمسكوا بالرسلام حتي الموت . وهذا هو ظل المعني الأصلي الذي ينسب إلي أصل الوضع . وأود الآن أن أعرض طائفة من المعاني المنسوبة إلي الجملة بأصل الوضع وما

المعني الأصلي	ظلال المعني	
خبر	شرط	الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم (البقرة ٢٧٤).
خبر	أمر	وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ(البقرة ٢٢٨) .
خبر	دعاء	فزادهم الله مرض فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (البقرة ١٠).
خبر	عرض	هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (هود٧٨).
خبر	إلتزام	سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا(النور ٥١).
خبر	تعجب	إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (ص ٥)
خبر	تعميم	قَالُوا لا ضَيْرَ (الشعراء ٥٠)
شرط	تعجب	ووَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ (الرعد٥).
شرط	سبر وتقسيم	وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ(غافر ٢٨) . وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ(غافر ٢٨) .
شرط	تمن	لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ!(الزمر ٥٨)
شرط	تسوية	إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان ٣) .

نداء	تعجب	قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ (يوسف ١٩).
نداء	ندبة	يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ! (يوسف ٨٤).
نداء	اختصاص	ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (الواقعة ٥١). لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (الواقعة ٥٢).
نداء	تمن	يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ (القصص ٧٩).

يكون لكل منها من ظلال ، وذلك كما يلي :

وهكذا تتعدد الظلال للمعاني الأصلية الأخري وهي الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتحضيض والرجاء والتمني والتعجب فنري لكل واحد من هذه المعاني الأصلية عددا من الظلال علي النحو الذي رأيناه . ومن شاء أن يطلع علي ذلك فعليه أن يلتمسه في كتاب : «البيان في روائع القرآن» لصاحب هذا البحث .

ثالثا : ظلال المعني في البلاغة :

سبق لي أن شاركت غي حلقة دراسية أقامها النادي الثقافي بجدة بالمملكة العربية السعودية في المدة بين ١٩ - ٢٤ نوفمبر ١٩٨٨ بعنوان : «قراءة جديدة لتراثنا النقدي» وكان عنوان ما تقدمت به من بحث هو : «موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية» وكان المقصود بما وراء الصياغة اللغوية مصطلحات شاعت في نقد السلف مثل : الجرس وحسن التأليف والسلاسة والجزالة والديباجة والسبك والماء والرونق مما يمكن نسبته إلي ماسبقت الإشارة إليه من المعني الانطباعي . ولم يكن أي واحد من هذه المفاهيم يخضع في منهجهم لتناول منظم من خلال فهم نظري . حتي السبك الذي يشار إليه في زماننا في معرض دراسة النص بالمصطلح coheasion ويدرس درسا منظما في نطاق التضام والرتبة والربط لم يكن في فهمهم أكثر من إحساس بوحدة النص وانطباع بتماسكه . هذا ما كان في تلك الندوة .

أما بالنسبة لظلال المعني التي يمكن الكشف عنها عند النظرة البلاغية فإنها تتطلب أولا أن نفرق بين علوم المعاني والبيان والبديع لما بين هذه العلوم من اختلاف في النظرة إلي موضوع الدراسة . فالمتأمل في موضوع علم المعاني يجده عظيم الصلة بالدراسات النحوية ، لأنه يفرق بين صور الإسناد الخبري وما يستفاد من كل منها وما يلزم لها ، وكذلك يفرق بين أضرب الخبر من حيث الإثبات والتأكيد ، ثم خروج الكلام علي خلاف الظاهر . ويلحق النفي في هذه الأمور بالإثبات فما قيل في موقف علم المعاني من الإثبات يقال أيضاً في حالة النفي . ومن موضوعات علم المعاني التفريق بين الحقيقة العقلية والمجاز العقلي بواسطة القول بما إذا كان اللفظ المسند قد أسند إلي من هو له أو إلي غير من هو له . وذلك عرض آخر لفكرة المناسبة المعجمية والمفارقة المعجمية والمعروف أن القول في شأنهما فرع علي الكلام في قرينة التضام في النحو ، وأن المفارقة المعجمية هي منشأ المجاز ، وشرطه وجود العلاقة والقرينة . ولقد التزم علم المعاني بالكلام في موضوعات تنتمي إلي ثلاث من قرائن النحو يتحمل كل موضوع منها ظلا من ظلال المعني علي الوجه التالي :

١ – **قرينة التضام** : طرفا الإسناد – المناسبة والمفارقة – الحذف الإضافة – الوصف – الإبدال – العطف – التخصيص – التعميم – المعاقبة.

٢ – **قرينة الرتبة** : التقديم – التوسط – التأخير.

٣ – **قرينة الربط** : الإضمار – العلمية – الموصولية – الإشارة – العهد – الجنس – التنكير – الخروج علي خلاف مقتضي الظاهر . وكل واحد من هذه المواضيع يكمن في داخله ظل المعني .

أما علم البيان فيمكن تلخيص موضوعه بأنه يدور حول استعمال الألفاظ المفردة علي النحو التالي :

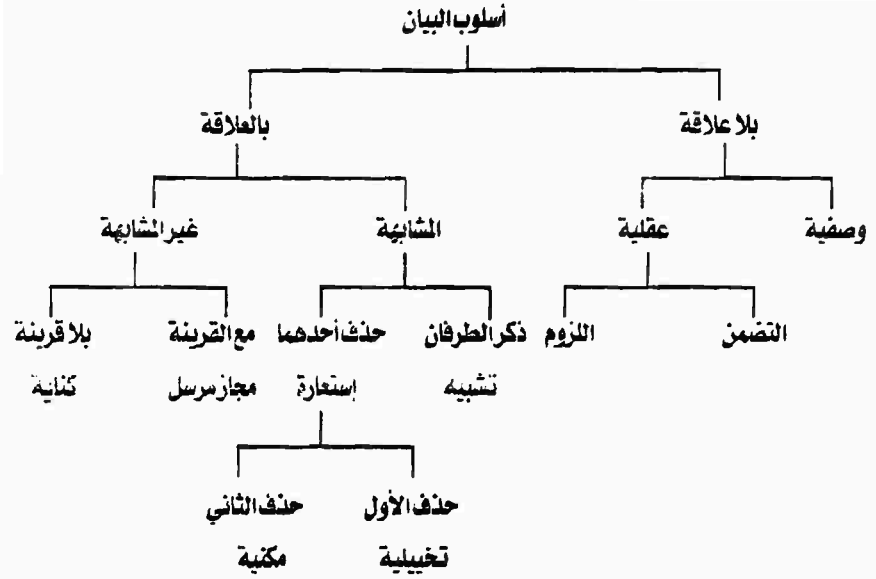

هنا نظفر من علم البيان بظلال للمعني منها وجه الشبه ولازم المعني والتضمن والتخييل والعلاقة والقرينة والمجاز والإستعارة والأصالة والتبعية والتجريد والترشيح . ومن المفيد أن نشرح جانبا من هذه الجوانب وليكن هذا الجانب هو الإستعارة . يقول تعريف الاستعارة إنها : «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلي معني آخر لعلاقة بينهما وقرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي » . فلو أخذنا عناصر هذا التعريف بالشرح لإنتهينا إلي ما يلي : يمكن أن نفترض أن شاهد الاستعارة المذكورة هو : «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدي » . عندئذ يكون الوضع علي النحو التالي :

المعني الأصلي = الشراء ، المعني الآخر = الاستبدال

العلاقة = وجه الشبه ، القرينة = المفارقة المعجمية

شبّه الشراء بمطلق الاستبدال ثم حذف المشبه به (وهو الاستبدال) وأقيم المشبه مقامه بما بينها من وجه الشبه (أي علاقة المشابهة) فلوحظ ما بين الشراء من جهة وبين الضلالة (التي هي ليست سلعة فتشتري) والهدي (الذي ليس ثمنا فيدفع) من جهة أخري (وتلك هي المفارقة المعجمية أي

القرينة التي تحول دون إرادة الشراء) . ولما لم يكن الشراء صالحاً في هذا الشاهد للقصد أصبح الاستبدال هو المقصود . ولما لم يكن الاستبدال مذكورا كان ظلا للمعني . وليس الأمر كذلك في الكناية لأن القصد يمكن أن يتجه إلي كل من المعنيين في الوقت نفسه ، فيكون المعني البعيد (وهو لازم المعني) ظلا للمعني القريب ، ومن ثم تنتفي الحاجة إلي القرينة اللفظية وإن دعت الحاجة حينا إلي قرينة حالية ، فالإنسان لا يحس الحرج إذا وصفه أحد بأنه «يأكل الطعام» ولا بأنه «يمشي في السواق» . ولكن يحرجه الوصف بالتغوط والمساومة . كما في قوله تعالي : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان ٧) .

أما علم البديع الذي يدرس تحسين الكلام بعد مطابقته لمقتضي الحال (أي لسياق الموقف) ، وبعد أن يتسم بوضوح الدلالة ، فتنقسم المحسنات فيه إلي معنوية ولفظية . فأما المحسنات المعنوية فيغلب فيها طابع ظلال المعاني ، وأشهرها المطابقة والتضاد والمقابلة والأرصاد والتوهم والتعليل الخ . وأما المحسنات اللفظية فهي ظواهر شكلية أسلوبية لا تحكمها قاعدة ، وقل أن تنتمي إلي ما نحن بصدد الكلام في شأنه من ظلال المعاني .

هنا نصل إلي موقف علماء أصول الفقه من الأحناف من ظلال المعاني. وسنجد أن موقف هؤلاء من المعاني لا يتجه إلي الجملة بقدر ما يتجه إلي اللفظ المفرد. وأول ما يصادفنا من نظرهم إلي معني اللفظ ما يلي:

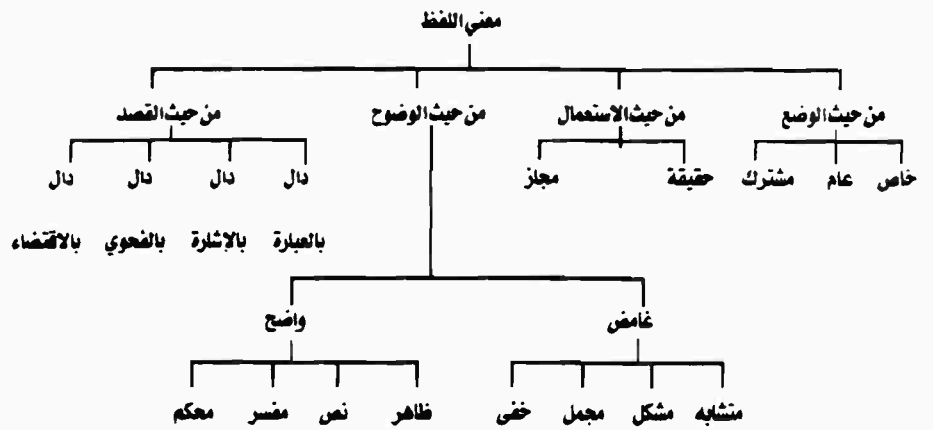

وكأن الشافعية وافقوا علي المعاني الثلاثة الأولي مما رآه الأحناف ، وخالفوا في حالة المعني من حيث القصد كما يلي :

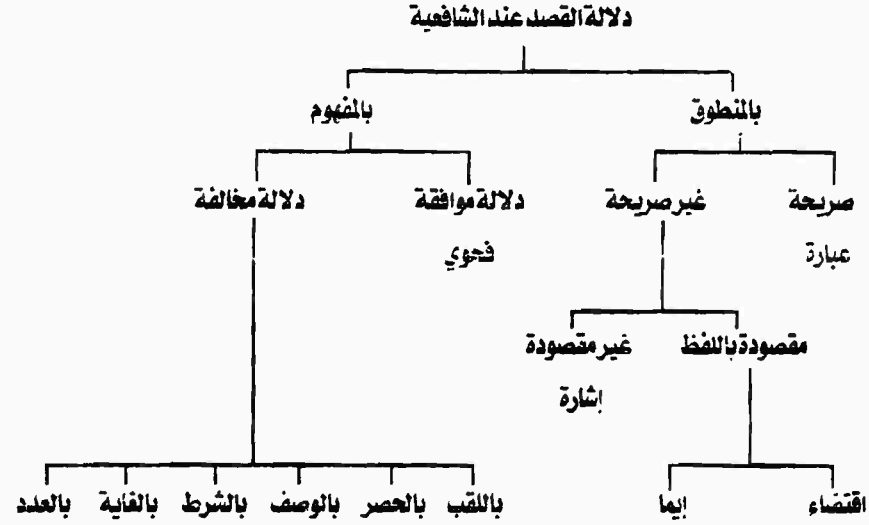

وهكذا نجد المفاهيم المشتركة بين الحنفية والشافعية في تقسيم فكرة القصد تتفق إلي حد كبير في فهم المقصود بألفاظ كل ما تفرع عن المنطوق غير الصريح (أي الاقتضاء والإيماء والإشارة) ثم المقصود بالفحوي ومفهوم المخالفة . وكل ذلك من ظلال المعاني .

وفيما يلي طائفة من الشواهد القرآنية علي هذه الظلال :

العبارة : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (البقرة ٢٥٥) . المعني مرتبط بصريح اللفظ .

الاقتضاء : «وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِ» (القمر١٢) .

القدر والتفجير لابد أن يؤديا إلي إلتقاء الماء .

الإيماء : «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ» (القصص ٤٦). أنت إذن تتلقي الخبر عن الوحي .

الإشارة : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان ٧) الإشارة بأكل الطعام إلي إفراز الفضلات وبالمشي في الأسواق إلي المساومات .

الفحوي : «ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون» (آل عمران ١٠٢) . أي تمسكوا بالإسلام حتي الموت .

مفهوم المخالفة : «يا صالحُ قد كنت فينا مرجُوًا قبل هذا» (هود ٦٢) أي أنك لم تعد الآن مرجوا .

وأخيرا نصل إلي طريقة السيمولوجيا (وهي فرع من الدراسات اللغوية الحديثة لدراسة العلامات ودلالاتها) لنلقي نظرة علي أحد الألفاظ وننظر في ما يتفرع عنه من عناصر المعني (أي السيمات كما يسمونها) . فهذه العناصر الأولية تنقسم إلي طائفتين إحداهما لاغني عنها لتحقيق المطابقة الدلالية بين اللفظ ومدلوله والأخري يمكن للمطابقة أن تتحقق بدونها. فلو أخذنا لفظ «أم» مثلا لنري الفرق بين الطائفتين فسوف نجد أن الأمومة لا تتحقق إلا بعناصر ضرورية هي :

الأنوثة – البلوغ – المخالطة الجنسية – الحمل – الولادة – فارق السن بين الأم والمولود .

ولكن هناك عناصر أخري يمكن أن تتحقق الأمومة بدونها وهي :

الإرضاع – العطف – الزواج – المحبة – العناية ... الخ .

ومن العناصر الضرورية التي ذكرت أولا ثلاثة لافضل للأم فيها لأنها من عطاء الطبيعة وهي : (الأنوثة والبلوغ وفارق السن) ، أما الثلاثة الأخري من المجموعة ذاتها وهي . (المخالطة الجنسية والحمل والولادة) فهي تتم بحسب قرار وبجهد عضوي لايمكن أن تتم الأمومة بدونه .

ولكن هذه العناصر جميعاً ما كان منها عضوياً وما لم يكن تعد وجوه شبه بالنسبة لمجاز الأم . فإذا قلنا مثلاً : «مصر أمنا » فوجه الشبه (أي ظل المعني) أنها تغذينا بخيراتها . وإذا قلنا : «الخمر أم الكبائر» فوجه

الشبه أنها سبب في وجود الكبائر أو حدوثها ، وهلم جرا .

ويروي رواة الحديث النبوي أن سائلا سأل النبي صلي الله عليه وسلم: «من أحق الناس بحسن صحابتي ؟» فأجاب عليه الصلاة والسلام :

«أمك» . وكأنه يقول : فهي شريكة في جهد تكوينك . قال : ثم من؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول : فهي قد حملتك كرها . قال : ثم من ؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول :فهي وضعتك كرها . قال ثم من ؟ قال :

«أبوك» . وكأنه يقول : لأنه شارك في الجهد الأول فقط .

وهكذا يبدو للمتأمل كما لو كان ذكر الأم أولا جاء في مقابل ما سبقت الإشارة إليه من المخالطة الجنسية وجاء ذكرها ثانيا في مقابل الحمل ثم جاء ثالثا في مقابل الولادة أما الأب فلم يذكر إلا في مقابل الجنس فقط ، وجاء ذكره لأنه مصدر الحيوانات المنوية وما يشكل جنس المولود ذكرا كان أم أنثي ، وأما الأم فهي مستقر ومستودع .

ويتضح للمتأمل أيضاً أن قضية ظل المعني ليست حكرا علي منهج النقد الأدبي ولاعلي علم النفس اللغوي وإنما ترتبط نوع ارتباط بالدراسة المنظمة للغة ، وأن القول فيها يمكن أن يجد من البسط أكثر مما كان له في هذه العجالة .

وأخيراً أحب أن أشير إلي لفظ «سيماهم» في قوله تعالي : «تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ»(البقرة ٢٧٣) وقوله : «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ» (الرحمن ٤١) ثم إلي ما سمي به علم السيمولوجيا في العصر الحديث وهو من إنتاج البحث العلمي في الغرب .